قصـــة الحيـــاة

« إلى روح صديقي محمود ؟ الذي رحل إلى عالم الخلود »

للأستاذ صبحي ابراهيم الصالح

كنت في الحديقة ساعة الأصيل أتفيأ شجرة وارفة الظلال متأملاً ـــ سفيرها المتأثر بين قدمي ومن حولي ؛ ثم التقطت منه — على غير شعور مني — ورقة صفراء يابسة ففركتها بين إصبعي ، وهفت الريح فأطارت ما في يدي مع الغبار ، وتركتني أهيم في تفكير طويل !

ولـكن ... لشد ما آلمني تفكيري ، وأرهف حسي وشعوري !

***

لقد تلوت « قصة الحياة » تحت هذه الشجرة وشهدت تمثيلها الخاطف المجهول ؛ ولقد كانت القصة مأساة بكت لهـا عيناي ، وكان تمثيلها مؤثراً حرك حزني وأساي ...

رأيت الحياة — في هذه المأساة — نبتة نزل عليها الغيث فأخرجت شطأها وهاجت وترعرعت ، ثم استوت على سوقها وأينعت وأثمرت ، ثم علا رأسها فأغصنت وأفرعت ، ثم أضحت شجرة فأخصبت وأمرعت ، يجني ثمارها القاطفون ، ويستروح ظلالها العابرون .

على أن الرياح — وا أسفاه — استطالت عمر هذه الشجرة فهوت عليها ، وحطمت أفنانها ، وذرت أوراقها ، وأتلفت ثمارها ، وأنذرتها فناء قريباً !

ولبثت الشجرة حائرة في مهب الرياح ، ترى أوراقها تذوى فلا تملك إلا النواح !

***

تلك فصول هذه (القصة) تلوتها وشهدت تمثيلها تحت هذه الشجرة : فلم أر بعد الحب واللهو والزينة ، وبعد البهجة والفرح والمسرة ، وبعد التكاثر والتنافس والتفاخر ، إلا ضعفاً وعجزاً ومرضاً ، وكهولة وشيخوخة وموتاً .

ولم أر أنفسنا إلا أوراقاً على أغصان هذه الشجرة ، غير أن هذه الأوراق مختلفة الألوان والأحوال ، فمنها الخضراء الناضرة ؛ ومنها الصفراء الشاحبة ، ومنها التي أوشكت أن تصوّح ، ومنها التي تساقط أسفل منا ونحن لا نشعر !

***

وقلت في نفسي وأنا أستعيد في خيالي فصول هذه القصة : « كما فركت بين إصبعي وأنا لا أبالي تلك الورقة اليابسة المسكينة

فقالت الفتاة « لا زوج لك هنا ... أنا هنا صاحبة الدار وصاحبة الرأي وصاحبة الأمر » .

وران الأسى على قلب الزوجة لما سمعت فقضت ليلتها تتململ في فراشها لم يغمض لها جفن ولا قر لها قرار ، وإن الخواطر السود لتضطرب في خيالها فتفزعها عن هدوئها وراحتها ، وإن الخوف ليسد أمامها الطريق فهي تخشى أن تزل قدمها فتفقد كرامتها وشرفها وتخشى أن تبوح لزوجها بما سمعت من أخته فيرميها بالفتنة والنميمة ، فكتمت أتراحها لا تبدي عن شيء منها .

وآدها أن تصبر على حديث الفتاة وهي تلاحقها تريد أن تدفعها إلى الجريمة ، فانطلقت — بعد لأي — إلى زوجها تنفض أمامه جملة الخبر فما أحست فيه الإباء ولا الترفع ولكنه انطوى عنها وعلى شفتيه ابتسامة ... ابتسامة الذئب يوشك أن يغرر بالفريسة ، فساودها الأسى والضيق وتراءت أمامها فرصة الرذيلة تتفرج في غير رحمة ولا شفقة تكاد تبتلعها فأصابها الذعر والخوف ، فطارت إلى أمها العجوز الفقيرة علها تجد هنا متنفساً .

وترفعت الأم العجوز الفقيرة عن أن تبيع شرف ابنتها الطاهرة بثمن بخس دراهم معدودة ، وأخذتها العزة بالإثم فآثرت أن تبيت ابنتها على الطوى تقاسي المخمصة والشجب على أن يثلم شرفها أو تخدش كرامتها .

***

أما أنت يا رجل ، فلست رجلاً إلا أن تعتز بالشرف والكرامة وإلا أن تفخر بالشهامة والإباء وإلا أن تتشبث بالرجولة والمنعة ، لا يغنيك منها أن تبدو أنيق اللباس نضير الإهاب بهي الطلعة .

كامل محمود حبيب

يفرك الدهر الجبار بين أصبعين من فولاذ أوراقنا الجافة بغير اكتراث ».

ومرت بي آنئذ — في لمح البصر — صور عزيزة لا تنسى، وذكريات قريبة لا تمحى، لبعض أصدقائي الأوفياء، وأقربائي المحبوبين الذين أبى الدهر أن يؤنسني ببقاء أوراقهم على الغصن الذي أورقنا جميعاً عليه، فاختطفهم وأرسل عليهم ريحاً صرصراً جعلتهم كهشيم المحتظر!

وبكيت لأول مرة في حياتي بكاء مراً — وما عهدت نفسي بكاء ولا مدماعاً — لأني فكرت في العالم المجهول الذي سيق إليه أحبابي وأصحابي، وخشيت ألا يجدوا فيه روحاً وريحاناً، لا لأن بي شك من الخلود، ولكن لأن بعض أولئك الأعزة الذين فارقوني لم يُتح لهم من الزمن ما يستعدون معه للرحيل، ويتأهبون خلاله لسفر طويل، إذ جفت أوراقهم واصفرت بعد اخضرارها بقليل...

وكان (محمود) آخر من أسرع إليه الجفاف من أصحابي؛ ولقد والله كان أنضرهم وجهاً، وأحلاهم مبسماً، وأنداهم حديثاً، وآنسهم مجلساً، وأرقهم شعوراً، وأنبلهم عاطفة، وأطهرهم قلباً، وأسماهم نفساً، وأعفهم يداً، وأصدقهم لساناً، وأكثرهم تواضعاً؛ وكنت أحسبه أطولنا عمراً، وأنسأنا أجلا، وأرغدنا عيشاً

لكن الموت عدا على (محمود) وهو في ربيعه الخامس والعشرين — ما يزيد عن سوى عامين — فدفنه كنزاً ثميناً، ودفن معه آماله الكبار... فكيف أبقى صامتاً لا أرثيه، أم كيف أظل جامد العين فلا أبكيه؟!

***

وفيما أنا مستغرق فيما يساورني من الأفكار، هزت الريح الشجرة كرة أخرى، فتناثرت أوراقها تترى، فأسرعت أفتح لها حجري كأني وددت لو التقطها وأحول دون سقوطها على الأرض ووطئها بالنعال، بيد أنها آثرت جميعاً أن تتشبث نهايتها وتقع على الأرض إلا ورقة واحدة كان نصيبها حجري، واعتنيت لالتقاط أخواتها وأنا شاعر بأني أحيي أنفساً توشك أن تموت، وإذا بالورقة نفسها تسقط أثناء انحنائي فأسحقها بقدمي على غير إرادة مني، فعدلت عن التقاط الأوراق الباقية، وأيقنت أن لن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها، وإننا لا نملك لأنفسنا نفعاً ولا ضراً، ولا نملك موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وإننا أوراق في مهب الرياح، لا ندري كم تبقى نضرتنا، ولا نعلم متى نصفر فنموت!

***

وحينئذ فاضت معاني الإيمان في قلبي، واستطاعت هذه المعاني — على سذاجتها وبساطتها ونفورها من التعقيد — أن تلهمني الصبر، وتوحي إلى الرضا والسكينة، وهي تهمس في أذني آية خالدة صورت (قصة الحياة) أروع تصوير: « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح ... وكان الله على كل شيء مقتدرا ».

صبحي ابراهيم الصالح

وقفـــة ...

للأستاذ محمد محمود عماد

حبذا ساعة نجوى ساقها الدهر إلينا
قد طوينا من فصول الـ ـحب فيها ما طوينا
وقفة دامت فما نعـ ـلمُ كم فيها قضينا
لم ندرى؟ لم نحصى؟ والأماني في يدينا
ساعة أو ساعتين أو ثلاثاً ما علينا
كل ما نبغيه من حب ومن قرب لدينا
قد تباعدنا زماناً ثم من بعد التقينا
كنت ظمآن وكانت فاحتسينا وارتوينا
ارتوينا من ينابيـ ـع الهوى قلباً وعينا
حبذا القبلة رنت عذبة في سمعينا
قبلة طالت فما نَد ري متى منها انتهينا
نحن الاثنين نسينا أو تناسينا فينا

محمد محمود عماد